خريدة لبنان

(الاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

٤

فما قالك الرجل ان اندفع الى خارج الدار كأنَّ به مسًّا وصاح بصوت اليأس : رباه أَمَاتت هي ايضًا ؟ انيسة ماتت ؟ ويلي فاني لا اسمع غير هذا الجواب « مات . مات » ولستُ اجد في بلادي من يعرفني ولا ترمقني عين صديق

قال هذا واخذ يمشي على غير هدًى يوسع الخطى ولا يدري اين يؤدّيه المسير. فما كان منهُ الَّا ان وصل بعد هنيهةٍ الى المقبرة بجوار الكنيسة . فنظر مليًّا الى منازل الاموات وهو واجم ثم تنهَّد الصُّعداء. وقال بصوتٍ خافت : هنا عند خروجنا من الكنيسة قامت معي انيسة على قبر امّي وعاهدتني انها تثبت على ودادي وتصبر الى يوم رجوعي . فقبلتْ عربونًا مني صليب فضَّةٍ . . . ما اتكد حظَّكِ ايتها الفتاة . انا سافرتُ الى دار الغربة وانتِ انتقلتِ الى عالم الاموات . فلم يسعدني دهري بان اجتمع بكِ بعد سرّ الفراق . . . وما ادراني اني لستُ قائمًا على قبركِ ادوس ثرى لحدكِ ؟

فما تمَّ هذا الكلام حتَّى خارت قواهُ فسقط على بلاطة ضريح وقد بلغت روحهُ التراقي . ثم اجال طرْفًا عليلًا في اكناف المقبرة فساءهُ حالها اذ رأى كلَّ قبر فيها عبارة عن ركام حجارة . وتمنَّى لو جرت في بلده عادة استحسنها في الاقطار الغربية وهي ان تنصب الامُّ صليبًا على ضريح ولدها رمزًا الى الرجاء . ويشيّد الابن فوق تربة والديه اثرًا يعلن برَّهُ بهما ويزيّن الصديق لحد صديقهِ بالرياحين والزهور دليلًا على حفظ الوداد . وكان قبل سفرتهِ وهو حدَثٌ يتردَّد الى المقبرة ليزور رمس والديهِ ويقدّم الصلاة لراحة نفسيهما . فلم يعد يهتدي اليوم بعد رجوعه الى قبريهما

وكانت المقبرة ساعتئذٍ قفرة لم يزرها احد عند الهاجرة فخلا لهُ الجوّ لبثّ شكواه وبعث نفثات الصدر وسجم الدموع السخينة . وفيما هو على تلك الحال يفكّر في زوال هذه الدنيا واهوال الموت وغوامض الابدية اذ طرق مسامعهُ وقعُ اقدام . ولم يكن القادم سوى الحفَّار الشيخ قد جاء حاملًا مجرفة ومعولًا وكانت هيئتهُ الرثَّة تنبئ على فقرهِ وصروف

الزمان قد حنت صُلبَهُ وأشعلت رأسهُ شيبًا وجعّدت وجههُ الّا انهُ لم يزل بعدُ يرق النشاط يلمع في عينيه

فما وقعت عين المسافر على هذا الشيخ الّا عرف منهُ خطتهُ القديم فارسًا عبُودًا وهمّ ان يطير اليه لو لم يثبّطهُ عن مرامهِ ما نابهُ من الفشل الى ذاك الحين فلزم مكانهُ ليرى ان كان يعرفهُ فارس

فوقف الحفّار على بُعد خطوات منهُ. وتأمّلهُ برهةً ثمّ اخذ يرسم في الارض شكلًا مربّعًا مستطيلًا ليحفر هناك قبرًا جديدًا. ولم يكن عملهُ ليشغلهُ عن مُسارقة النظر الى الغريب فما لبث ان لاحت على وجههِ أمارات سرورٍ مُنكَر

فظنّ المسافر انها بشائر الفرح بلقاء عشير الصبا. فخفق فؤادهُ طربًا وعلّل النفس بان فارسًا يُسرع اليهِ ويناديه باسمه

امّا الحفّار فوجّه اليهِ نظرة الحقد والسخريّة ومدّ يده الى ما وراء ظهره تحت عباءته التي شدّ ذيلها الى وسطه واخرج حبلًا اعقد من ذنَب الضبّ فزاد فيهِ عقدة وقد بدت عليهِ ملامح الفوز حتى ان الغريب تهض ودنا منهُ وسألهُ متذهلًا :

— ماذا تفعل ؟

قال الحفّار : هذا يعنيني. قد طال انتظاري حتى نفد صبري وهذه العقدة لحسابك

فصاح الغريب بفرح : اذن تعرفني

— ومن أعرَف بك منّي أوَ أنسَ خصمًا رماني يومًا في الساقية. ولولا القليل لفرّقني عن حسد لانّ انيسة ابنة الصبّاغ كانت تفضّلني عليهِ...

— انت تفضّلك عليّ انيسة ؟ لا صحّة لما تدّعي...

— لاشكّ في قولي. وهل نسيتَ يا حسود انّها حفظت كل السنة تذكارًا مني جلبتُهُ لها من مار الياس فاتيتَ وترعتهُ من صدرها ؟

فقال الغريب بلهجة من الحزن : فارس دعنا من احاديث الصبا ولا تذكرنّ ما مضى ولكن صدّقني انّ قلب انيسة لم يمل قطّ اليك. وان قبلتْ هديّتك فلأنّها من مزار مار الياس ولئلّا يسوءك إباؤها. وانا كنت وقتئذٍ في عنفوان الشباب تلعب الخُيلاء بأمري فلم أُحسن ملاطفتك لها. ولكن هل يليق بنا ان نُثير مكامن الاحقاد بعد عشرين سنة مضت فافنت خلائق برمّتها. انت وحدك عرفتني أفتكون لي عدوًا لدُودًا. ألا نجياتك هات

يدك فأصالحها وننسى ما مضى ونقضي ما تبقّى من العمر في وفاق وإخلاص واعلم انّ لديّ وسائل استطيع بها ان أخفّف عنك مشاقّ الحياة

فحدّق الحفّار بفظاظة وقال بصوت اجشّ: انا انسى ما مضى ؟ . لا انساهُ ابد الابدين. لات حين وفاق فانك تنّصتَ عيشي . . . ما كان يمضي يوم الاّ ذكرتُكَ فيهِ وهيهات ان اذكرك بخير وانت سبب شقائي

فاطم المسافر خدّيه وصاح : الهي الهي الحقد وحدهُ يعرفني والبغض وحدهُ لا ينسى ولا يموت

فقال الحفّار ساخرًا : حملتك الاقدارُ الى هنا لكي تجتمع باهالك الذين ماتوا. ليطمئن بالك دبّرت لحدًا الطويل قبرًا نمسًا القبر . فسأدفنهُ ان شاء الله عند حائط الكنيسة بقرب الميزاب حتى يصبّ عليه ماء السطح ويطهّر نفسهُ الاثيمة

فوثب الغريب عند هذا الكلام الذي خرق فؤاده كالسهم وامتقع لونهُ وتطاير من عينيهِ الشرر. بيد أنّهُ لم يكن الّا اسرع من ارتداد الطرف حتى ثاب اليهِ وقارهُ وسكن جأشهُ وباحت نار غضبه فقال متنهدًا : انك تأبى مصافاة اخٍ ردّهُ الله بعد عشرين عامًا وما كان سلاحك عليهِ الّا الخزيّة والاهانة. أفارسُ انّ ذا لفعل ذميم . لكنني أغضي على القذى واصفح عن السيئة. فقل لي اين قبرا والديّ فقد طال بي البحث ولم اهتدِ اليهما

فقال الحفّار بصوت حاكى همهمة الثمر : لا اعرف . فاني منذ عشرين سنة حتى اليوم حفرت اكثر من مرّة في المكان الواحد وبثرتُ ما في القبور من العظام

فكان لهذا الكلام وقعٌ انكى من الحسام في قلب المسافر فهاجت فيه الافكار وماجت وبقي مدّةً مطرقًا خائفًا. امّا الحفّار فعاد الى عمله ولكن بتراخٍ كانّهُ اضطرب لسوء صنيعهِ نحو الغريب. والحقُّ يقال انّ قاوسًا لم يكُ برجل سوء فما لبث ان عاد الى نفسهِ وراعهُ ما ثار في قلبه من عوامل الانتقام وداخلهُ الندم على ما فرط منهُ في حقّ انسان كان لهُ عشيرًا في صباه. فرفّ الى خصمه الكئيب نظرةً يستشفّ منها الخبرَ ثمّ دنا اليهِ بهدوء وامسك بيده وقال لهُ بسكينة : يا صاحبي حنًا. سامحني فاني اسأتُ اليك . ولكن لو كنتَ تعرف ما قاسيت بسببك

فصافح الغريب يدّه وصرخ : دع يا صاح ذكر ما مضى. فانّ جوارحي تهتزّ طربًا لمجرّد تلفظك أيها العزيز باسمي انا الغريب. وهاك نسيتُ منذ الآن ما فرط منك من الكلام

وقد عمل في قلبي ما لم تعمله السهام. فقل لي ناشدتك الله اين قبر أنيسة فاروية بدامعي. ولا بدعَ انها تفرح في العلا اذا رأتنا نتصالح ونتآخى عند مدفنها

— مدفنها ؟ يا ليتها أدرجت في لحدها فتكون استراحت من الحياة

— فهي إذن حيَّة ؟ انيسة بعدُ في قيد الحياة ؟

— بئس الحياة وقُل بالاحرى موتًا

— كلامك تقطّع كبدي أفدني بربك ما حلَّ بها ؟

— أنها عمياء.

— انيسة عمياء . . . ربي ما هذا المصاب. ولا يعود يشخص اليَّ بحرها

قال ذلك بصوت يفتّت الجلمود وخرّ على الارض متلاشيًا . . . ولمَّا عاد اليه بعض الرمق الحّ في السؤال فاجابهُ الحفَّار: انها عميت منذ عشر سنين وهي الآن تدور على ابواب المحسنين تتسوَّل. فكلما ساعدني الله اعطيتها بعض دريهمات. ولا تخبز خبزةً الَّا وأفردنا لها حصَّتها .

فوثب المسافر وضمّ فارسًا الى صدره وهتف : اشكرك الف شكر . وجازاك الله خيرًا على ما احسنت اليها وسأكافئك ان شاء الله عنها فانا غنيّ من فضل الله ولست انسى معروفك. فأخبرني رحم الله اجدادك اين هي فأطير اليها وانشلها من وهدة الشقاء.

فاشار الحفَّار بيده قائلًا : هناك قرب البيت المغطّى بالقرميد الاحمر. ذاك البيت الصغير. وفيه يسكن سركيس الحائك مع عائلته وانيسة ساكنة معهم

٥

فما سمع المسافر هذه الكلمات الَّا اندفع كالسيل مارًّا في وسط بنايات الضيعة حتى وصل الى بيت الحائك . . . وما هذا البيت سوى عبارة عن سافات من الحجر الاصمّ غير المنحوت تكاد لا يتخللها ملاط قد قامت كالجدران فاستند اليها سقفٌ من جذوع الصنوبر بارزة الاطراف يعلوهُ طبقة من التراب والنحاتة. وفوق الكل اسطوانة يعرفها العامّة بالحدلة ولا تظنّ سطحًا من مساكن لبنان القديمة يخلو منها وهناك مصطبة قد ضربت فوقها بعض الدوالي قبّة خضراء وقامت الى جوانبها اصناف من البقول والرياحين كثر في خلالها الحبق. وكان بالقرب صبيٌّ لا يتجاوز السادسة من عمره مع ثلاث بنات اصغر منهُ وكلهم يلعبون حُفاةً تسترهم بعض أسمال الثياب وهم مكشوفو الرأس غير مبالين بحرّ الشمس

وكانوا اذ ذاك يحفرون في الارض حفرًا يغرسون فيها اغصانًا مقطوعة ويحملون اليها الماء في كسر ابريق او جرّة من فخّار

فلما بصرت البنات بالغريب اطرقت كل منهنّ حياء وهي تنظر خلسةً الى هيئته وزيّه امّا الصبي فحدجه ببصر غير هيّاب تدلّ نظراته على بعض الدهشة والفضول

ولم يكن المسافر لتلهيهِ المناظر او يتوقف في سيره بل زفّ الى الاولاد ابتسامةً ودلج المنزل حيثما وجد ربّ البيت جالسًا الى نَولهِ يحيك وامرأته في زاوية تغزل الحرير وكلاهما لم يزالا في مقتبل العمر تلوح عليهما لوائح القناعة والرضى بحالهما. وكل ما حولهما يدلّ على انهما امتازا بالنظافة وحسن الترتيب

فلما فاجأهما الغريب عراهما الاندهال لاوّل وهلة فتركا شغلهما وبادرا اليه اعتقادًا منهما انهُ ضلّ سبيله فوافاهما يطلب ايضاحًا. فتلطفا بدعوته للجلوس لكنهُ قال لهما بصوت يتلجلج: هنا ساكنة انيسة حسُّون؟

فوقعا في حيرة عند هذا السؤال وتبادلا نظرةً لا تُوصف وقد منعهما فرط الدهشة عن الجواب. ثم عاد الحانك الى نفسه فاجاب: نعم يا سيدي. انيسة ساكنة هنا. لكنها خرجت منذ ساعة. فهل ترغب في مواجهتها؟

فهتف المسافر: ترى اين هي الآن. أليس من سبيل الى ان تحضر في الحال؟

— هذا صعب يا سيدي فانها خرجت مع بنتنا الصغيرة روزا في دورتها الاسبوعية لكنها ترجع بلا ريب بعد ساعة. فانها ما تأخّرت ولا مرّة. تفضّل فاستريح. ربما تكون تعبان

— اسمحا لي بانتظارها هنا

فاسرعت المرأة الى خزانة واخرجت منها مسندًا وسجّادة والحّت على الغريب ان يستريح عليهما. فتأثر هذا ممّا صادف من الحفاوة به وجلس مستأنسًا. فكشف القبعة عن رأسه واخذ يمسح جبينه المكلّل بالعرق وقد سكن ما جاش في نفسه من الجأش

وكانت المرأة قد اشارت الى بناتها فبادرت احداهنّ الى العين تستقي ماء باردًا واقبلت هي مع الصغيرتين على اضرام النار واعداد الدارجيلة والقهوة. امّا الحانك فقام بين يدي ضيفه كأنّهُ ينتظر اوامره او يفكّر في عمل كل ما من شأنه ان يشرح صدره ويسرّهُ. ولا يخفى ان اهل لبنان اشبه الناس بالعرب في حسن الضيافة (ستأتي البقيّة)